مفهوم الجريمة عند دورينمات

بقلم الدكتور يسري خميس

أكدت احصائية قريبة ان قصص أجاثا كريستي البوليسية هي اكثر الكتب انتشارا بعد مؤلفات لينين .

ورغم الدلالة الاقتصادية لهذه الاحصائية ، التي تؤكد ان أدب الجريمة يسيطر من حيث الكم على السوق التجارية وينتشر بشكل اخطبوط على مستوى الكرة الارضية ، نجد ان هذا النوع من الادب ، « أدب الجريمة » ، ما زال ـ لحسن الحظ ـ يحتل مكانا ثانويا في عالم الفن والادب بشكل عام .

الا ان دلالتهاالاجتماعية والنفسية ، تقودنا لعوالم مخيفة . ففي الفترة الاخيرة من القرن العشرين ، وبعد معاناة الانسان المريرة نتيجة أهوال الحرب العالمية ، ومواجهته للموت والعبث واللامنطق بشكل عار وصارخ ، ووقوفه الحالي امام شبح حرب جديدة ، ومراقبته للعلاقات الاجتماعية نفسها التي ما زالت تتحرك داخل الاطار نفسه الذي أدى لحدوث الحرب ولسحق كل ما هو انساني ، بل ومراقبته في صمت لضغط الاطار المتواصل ولمدى صلابته واحكامه ـ كل ذلك أحدث تطورات روحية من نوع غريب داخل المجتمع الرأسمالي الاوروبي الغربي . فبفقدان « المثل الاعلى » وبمواصلة ضغط الالة المخيف على الكائن البشري ، واحساسه المستمر بالضعف والصفر والعجز ، وبتحول الانسان التدريجي ـ داخل ذلك النظام ـ الى شيء وسط أكوام الاشياء المتراكمة ، وبتحويله الى كائن غريب وسط عالم مفكك غامض وأسطوري ـ يبحث الانسان عن « نموذج متكامل » ، عن « مثل أعلى » ، عن انسان « ملحمي بطولي » ـ انسان يحقق له ما يعجز هو عن تحقيقه، انسان يسيطر على الالة وعلى التكنيك وعلىحياته بشكل بطولي ، يسيطر على حياته بشكل ما ، يمتلك حياته وحريته . في سبيل بحثه هذا ، يجد اخيرا ـ بعد تعرفه على نماذج مختلفة ـ « جيمس بوند » النموذج المنتصر دائما ، القوي دائما ، الشجاع دائما ـ ويشتعل جيمس بوند في اغلب أجزاء الكرة الارضية مشعا اشعاعات مخيفة .

وبينما تعتمد القصة البوليسية غالبا على اثارة انفعالات فجة مسطحة ، مليئة بالتشويق والرعب والفزع والمفاجئات ـ مثل روايات « اجاثا كريستي » و « ايان فليمنغ » ـ هدفها الاساسي التسلية البحتة والانفعال القشري ، نراها تأخذ احيانا اتجاها أعمق نحو داخل الانسان الغريب ، محاولة فهم النفس البشرية وكشف تضاريسها السيكولوجية المتناقضة ، كما في قصص ادغار الان بو التي تنطلق من « موقف » ذاتي ، واضح او غير واضح تجاه العالم والانسان ، يمكن تسميته بموقف « عدم الرضا » أو « الرفض » ومحاولة تخطي العالم بمشكلاته التي لا حل لها الى عالم رومانتيكي داخل خيال الكاتب نفسه ، الى عالم مضاد للواقع ، ومنفصل عنه ، خلقه الكاتب لنفسه طبقا لمواصفات خاصة حددها هو ـ هذا العالم الذي لم يخل من المشكلات بدوره ولم يحل الغاز الواقع ، بل ربما زادها تعقيدا وتقييدا، حيث يقول بو نفسه ان « هناك أوقاتا يرى فيها الانسان ـ حتىالانسان الحكيم ـ عالم البشر وكأنه الجحيم . ولكن خيال الانسان عاجز عن ان يستكشف خباياه دون ان يناله من وراء ذلك قصاص » .

بل اغلب الظن ان الانسان يواجه عجزه البشري بشكل مباشر داخل غابات الخيال المطاطية هذه .

وفي رحلة قطار أدب الجريمة السريع ، المنطلق من كوات القرن التاسع عشر حتى معامل القرن العشرين ، على قضيبي الضجة والاثارة السيكولوجية المبررة ذات الخلفية الفكرية ، يعترض طريقه فجأة الكاتب السويسري المعاصر فريدريش دورينمات Friedrich Dürrenmatt وفي يده راية انسانية بيضاء وفي اليد الاخرى مسدس محشو .

ولقد تعرفنا في البلدان العربية ـ منذ مدة ليست بالقصيرة ـ على دورينمات خلال ترجمة العديد من مسرحياته ـ بصرف النظر عن مدى رداءة هذه التراجم ـ كذلك فوق خشبة المسرح وفي السينما ، وعرفنا فيه ذلك الكاتب العظيم الذي يمتلك القدرة الخارقة على تقديم عالمنا « عالم المهزلة والقنبلة الذرية » بمشاكله المعقدة بأسلوب انساني هزلي دامع ومرح . ولكننا لم نعرفه حق المعرفة ككاتب روائي ، ولم نعرف ايضا انه يهتم بأدب الجريمة اهتماما خاصا .

وفي هذه الدراسة ، أهدف الى التعرف على دورينمات كروائي من خلال عرض وتحليل رواية « القاضي والجلاد » Der Richter und sein Henker التي كتبها عام ١٩٥٥ والتي طبعت حتى الان ثماني عشرة مرة داخل المانيا ، متابعين اثناء ذلك نقطة التحول الجديدة التي حققها دورينمات في أدب الجريمة الحديث ، فاتحا على مصراعيه عالما واسعا ذا امكانيات غير محدودة .

تبدأ الرواية البداية التقليدية بالنسبة للقضية البوليسية ، حيث يحاول الكاتب جذب انتباه القارىء بشكل مباشر منذ أول صفحة.

ذات صباح مبكر ، يجد رجل البوليس « كلينين » عربة زرقاء متوقفة في طريق عام بقريته الصغيرة « لامبونيج » ، يجلس داخلها رجل مقتول بعيار ناري في رأسه . يتضح ان هذا الرجل المقتول هو ايضا رجل بوليس من العاصمة « برن » يدعى « شميد » . فما كان منه الا ان جلس بجواره في العربة وقادها حتى العاصمة ، حيثتتعرف على شخصية المأمور « بيرلاخ » الذي تجاوز الستين من عمره ، والذي تنقل في هذه المهنة ما بين تركيا والمانيا ، ثم نقل اخيرا الى العاصمة السويسرية مسقط رأسه ، نتيجة صفعة لرجل مهم من رجال السياسة بالمانيا . وفي لمسة بسيطة ، كحادثة الصفع العرضية هذه ، التي ترتبط في ذهننا باللحظة نفسها التي نتعرف فيها على بيرلاخ لاول مرة ، ثم من خلال تعليقه على حادثة القتل : « نحن نعرف القليل ، والصحف هي الشيء غير الضروري السخيف في الالفي عام الماضية » ، تتضح لنا بعض ملامح شخصية المأمور الاساسية وسخطه على الواقع الاجتماعي ، ورفضه للفهم المتجمد للواقع الانساني ـ فهو لا يحمل مسدسا الا نادرا ، ولا يستعمله الا في حالات الاضطرار ، كما ان باب منزله مفتوح دائما ، فقد كان بيرلاخ يمارس عمله وحياته بشكل انساني وبانفعال متوتر امام الفوضى واللانظام ، وليس بشكل وظيفي جامد مثل رئيسه (دكتور لوتز) الاكاديمي القانوني ، المتأقلم أقلمة زائدة عن الحد مع الواقع الاجتماعي ، والذي يهمه في المقام الاول والاخير « المحافظة على الشكل ، والشكل فقط » .

ويتحمس بيرلاخ لمتابعة القضية ومعرفة القاتل ، ونتقابل مع صاحبة المنزل الذي كان يسكن فيه « شميد » القتيل ، فيعرض علينا دورينمات قطاعا عرضيا مخيفا للعادية البشرية ومدى ابتعادها وعزلتها عنالواقع ، قطاعا مثيرا للرثاء والضحك المر ، نلمسه منالحوار التالي :

صاحبة المنزل : ـ أين هو السيد شميد ؟

بيرلاخ : ـ سافر للخارج فجأة .

ـ بالتأكيد الى منطقة استوائية . أليس كذلك ؟

ـ لا ، ليس بالضبط . ليس في منطقة استوائية . سافر الى مكان اعلى من ذلك .

ـ يا الهي ! الى الهملايا ؟

ـ تقريبا . لقد قربت من معرفة المكان .

ـ هل سيرسل لي بطاقة من الخارج؟ ان ابني يجمع طوابع البريد.

هذا الحوار بما يحتويه من مفارقة مريرة وسخرية واضحة هو من أجل كشف العادية وجرحها .

ثم توكل المهمة رسميا لشاب طموح مغامر يدعى « تشانس » يبحث عن الفرصة كي يؤكد ذاته في عالم البوليس . ويقابل بيرلاخ الذي يعده بمساعدة في تتبع الحقيقة والكشف عن القاتل .

كان « شميد » المقتول ـ وهو اسم منتشر لدرجة كبيرة في سويسرا ـ بمثابة رمز (لانسان العصر) المتحضر ـ ذلك الانسان الذي يحمل على كتفيه موروثا حضاريا لقرون طويلة . كان مثقفا ، يعرف اليونانية واللاتينية ، كان ذكيا ، محبوبا ، حذرا ، كان له مستقبل عظيم ، لكنه فجأة قتل . كان الامل الوحيد في كشف الخطأ البشري وتعريته من اجل تصحيح واقع الانسان ، كان الخلاص الذي يرمز لمستقبل الانسان . لكنه قتل . كان كالحيوان الاصيل وسط غابة من الوحوش الضارية .

وبتتبع اطراف القضية بعد تفاصيل قليلة ، يتضح ان شميد قتل اثناء رجوعه من حفل في قرية لامبونيج ، حيث كان يذهب اسبوعيا .

وبينما كان بيرلاخ مع زميله تشايس يراقبان ذلك المنزل الذي تنبعث منه موسيقى باخ ـ حيث كان الحفل ـ فاجأ المأمور كلب ضخم شرس وهجم عليه بالفعل ، لكنه لم يحاول ايذاءه ، في نفس اللحظة التي أطاق فيها زميله الرصاص على الكلب فقتله .

وهنا تتوقف الموسيقى على طلقات الرصاص ويخرج صاحب المنزل مستثارا مستفزا، صارخا فيهما، متهما اياهما بالانفصالية ! والشيوعية !! وبانه لا يسمح مطلقا باطلاق النار اثناء عزف الموسيقى ، وانه يحرم اية مظاهرة ضد المدنية الغربية ـ والا فالجيش سوف يضمن النظام ! ويتفق دورينمات مع زميله ماكس فريش في وجهة النظر هذه ـ حيث لا يسمح صاحب المنزل بقتل كلب اثناء عزف موسيقى باخ ، بينما قام اشخاص من مثل صاحب هذا المنزل بقتل الاف والاف من الاطفال والشيوخ اثناء الحرب ، ثم يذهبون لسماع موسيقى باخ وموتسارت في فترات راحتهم من اعمال القتل الجماعية دون ادنى احساس بالذنب او الخجل.

ان دورينمات يعري هذه الشيزوفرينيا الاخلاقية او الشيزوفرينيا السلوكية لانسان العصر ، من المقدرة على العزل التام بين الثقافة والحضارة من ناحية وبين السلوك البشري من ناحية اخرى .

ان لم تجد الحضارة في تغيير سلوك الانسان ، اذن فلنعلن افلاس الحضارة ، او فلنعلن بصراحة افلاس الانسان .

وندخل المنزل ، فنتعرف على النماذج البشرية التي يضمها الحفل : الفنانون وهؤلاء « مجرد ديكور ضروري لتكملة شكل الحفل الاجتماعي . فنحن في بلد ذي حضارة . ويجب ان نكون المناقشات في سرية تامة . وهذا مؤكد في حالة وجود الفنانين . فالحفل مليء باللحوم المشوية والنبيذ والتبغ والنساء ، والدردشة التي يملها الفنانون ، فينعزلون تدريجيا ويجلسون سويا ، حيث يتناقشون في مسائل الفن ومشاكله ـ دون ان يلاحظوا ما تدبره فئة الرأسماليين » .

يهاجم دورينمات بقسوة وصراحة انعزال الفنان عن واقع مجتمعه ومشاكله ، فهو « لا يكتب الا الدراما السطحية المثيرة ولا يرسم سوى الجبال » ولا يهمه الا الفن فقط ، مبتعداً مسافات طويلة عن مشاكل العالم المعقد الذي نعيش فيه . بل ان دورينمات يحمل الفنانين مسؤولية هذه الفوضى المنظمة التي نقف امامها باحترام كما نقف امام تمثال العذراء .

فعندما يقابل المأمور بيرلاخ كاتبا كان يتردد على هذا المنزل ، لا يمكننا التعرف على الكاتب قط ، بل لا نرى وجهه على الاطلاق ، فوجه الكاتب مختلف تماما ، خارج عن دائرة الضوء . كتلة مظلمة تتكلم بسخف عن الوجبات الشهية . كتلة مظلمة تجلس في مكان بعيد وتلقي بأحكامها على الاشياء بشكل ميكانيكي سايبكي لا انساني ، دون ادنى محاولة لفهم أبعاد الانسان. فالكاتب يرى في صاحب المنزل ـ الرأسمالي الكبير مدير تروست الصفيح ـ حالة مسلية ، جديرة بالدراسة . فهو يتعاطف مع الرأسمالي بكل ما يحتوي عليه من شر ولا انسانية بشعة ، بل يبرر له تصرفاته تبريرا عقيما بانه « لا يفعل الشر لتحقيق غرض ما ـ من اجل نقود او امرأة او سلطة كالاخرين . لكنه يفعل الشر لانه لا معنى له ـ من اجل اللامعنى . فهناك دائما احتمالان بالنسبة له ، الخير والشر . والصدفة وحدها هي التي تقرر السلوك الذي يجب ان يسلكه . ان الشر هو اخلاقه ، فلسفته . ان الشر هو حريته « حرية العدم » .

وهنا يرد عليه بيرلاخ بعد اعتراضه على هذا الفهم القاصر المزيف لحقيقة الشر والخير في عالم البشر ، وذلك التبرير المغلوط للسلوك البشري اللاانساني ، والمحاولة المتعالية الجافة لتطبيق نظرية عدمية بشكل رياضي على الانسان ، ورفع هذا العبث الفكري المتخبط من مستنقع حقيقته المبتذلة الى مستوى النظرية ، وطرح القضية كمشكلة ميتافيزيقية متناقضة رغم وضوح ابعادها وحدودها ـ يرد عليه بيرلاخ ببساطة الانسان العادي صاحب الفكر الواضح النقي ، انه « من اجل مثل هذه الحرية ، لا يدفع مليما واحدا » . ويتركه ويخرج دون نتيجة وبلا أمل في معرفة شيء لتشخيص ظواهر الخطأ في حياة الانسان وواقعه ، من أجل تحديد أبعاد المسؤولية الفردية تجاه الجماعة .

اما الفئة الثانية التي تشارك في هذا الحفل ، فهم كبار رجال الصناعة (الرأسماليون) اصحاب الاسماء المشهورة وهم « احسن نموذج للمجتمع السويسري » وهم المنظمون الرئيسيون لهذا الحفل ، حيث تدار المناقشات والمباحثات التي تتعلق بالقضايا السياسية

آخر منشورات

دار الآداب ـ بيروت

ق.ل

● دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي
للدكتور عبد الرحمن بدوي ٣٥٠

● تجديد رسالة الغفران لخليل الهنداوي ٢٥٠

● جومبي (رواية) لاديب نحوي ١٢٥

● الخيل والنساء (قصص)
للدكتور عبد السلام العجيلي ٢٠٠

● رحماك يا دمشق (قصص)
للدكتور سهيل ادريس ٢٠٠

والاقتصادية والتي « لا ينبغي للدولة ان تتدخل فيها » . وهنا تتكشف لنا نوعية العلاقات الرأسمالية وحقيقة طبيعتها البشرية ومدى سيطرة الرأسماليين على علاقات العالم المتداخلة بشكل او باخر .

هذه المشكلة التي تؤرق دورينمات في أغلب أعماله الفنية والتي يثيرها دائما بشكل واضح – ففي (زيارة السيدة العجوز) نرى البليونيرة « كلارا تساخاناسيان » التي اشترت بأموالها القرية كلها بمناجمها ومصانعها وأناسها بضمائرهم ونفوسهم ومثلهم ، بل لقد اشترت زوجة صديقها (ال) الذي كان يجب ان يسجن ويموت من اجل الجميع . كذلك شخصية محتكر صناعة البنطلونات (روبف) في مسرحية (رومولوس العظيم) الذي يؤكد ان مؤسسته في جانب والامبراطورية في جانب اخر . وان وراءه الملايين من العملات الذهبية ، بينما وراء الامبراطور ، الطوفان الكبير . وانه على استعداد لان يشتري الامبراطورية (العالم) كلها من اجل ان ينقذها .

وهكذا ، فرجال الصناعة الاحتكاريون هم سادة الموقف في المجتمع الرأسمالي ولا شك – وبينما توضع النظم ، وتضيق الدائرة شيئا فشيئا ، وتحكم الاطر حولنا – يتناقش الفنانون في الفن ! وعندما يقابل بيرلاخ (نموذج الانسان الانسان) صاحب المنزل الرأسمالي (نموذج الانسان الجريمة) وجها لوجه ، يدور الحوار التالي :

بيرلاخ (الانسان) : لن أتوقف قط عن مطاردتك . يوما ما سوف أتمكن من اثبات جرائمك .

الرأسمالي (الجريمة) : يجب ان تستريح . لم يعد عندك الوقت الكافي . أمامك ستة واحدة فقط .

– فرصتي الاخيرة .

– الاخيرة .

ذلك هو الحوار الذي نرى خلاله حدة الصراع القائم بين الانسان والشر ، وصلابة الانسان وتصميمه على مطاردة الشر والخطأ البشري ، رغم مواجهته المستمرة لشبح الموت .

كما نتعرف على قدم هذا الصراع وأزليته والتحدي المتواصل من جهة الشر . فبيرلاخ يعرف الرأسمالي (نموذج الجريمة) منذ فترة عمله في تركيا ، ويذكر يوم ان ألقى الرأسمالي برجل من على الجسر في النهر – متحديا بذلك بيرلاخ (الانسان) – حيث برأته المحكمة ، وصدقت ادعاءه بأنها كانت مجرد محاولة للانتحار .

فالشر يسبق الانسان دائما بخطوة ، ولن يلحق الانسان به قط . فنحن نجيء الى العالم وكلنا براءة ونقاء ، فنجده ممتلئا بالشرور والاخطاء . كما ان النقص البشري وعدم الاكتمال الانساني ومحدوديته – بالاضافة الى دور الصدفة الهام على مستوى الفرد ، تحدد السلوك الفردي لحد كبير . هذا لا يعني مطلقا اسقاط المسؤولية الفردية واعفاءه من تحمل نتائج سلوكه . فالجريمة موجودة كشيء شخص على مستوى الفرد – رغم تأكدنا من غباء هذا العمل وعبثيته . فمن المحال ان نتعامل مع الانسان كما نتعامل مع قطع الشطرنج . اما اذ ابحثنا في الاصول العميقة والدوافع الرئيسية لارتكاب الخطأ بعد تخلصنا من النظرة المثالية والفهم المطلق العام لكلمة (الشر) ونزولنا من المستوى الميتافيزيقي الى المستوى الاجتماعي الانساني للمشكلة ، محاولين تحديد الابعاد والدوافع المادية التي تدفع الى مثل هذا السلوك الاجتماعي الموجع ، فاننا نرى ان أصل أكثر يكمن في خلل العلاقات الاجتماعية ، حيث ينام ويستقر على اريكة هذه الشبكة التي نسيطر على العلاقات الانسانية في ظل النظام الرأسمالي – الشيء الذي يبيح لمجموعة قليلة من الافراد ان تمارس أنانيتها ودوافعها الشخصية النفعية لاقصى حد ممكن ، متجاهلة كل مبادىء العلاقات الانسانية الاولية .

وهكذا ، فان التخلخل الاجتماعي الذي يكون الصفة السائدة في النظام الرأسمالي يميع الحقيقة ويبيح بالتالي ارتكاب جرائم عديدة بدرك أثرها ونعيشه ونقاسيه .

وهنا يرتقي دورينمات بالرواية البوليسية من مستوى الاثارة المادية ، مستغلا امكانياتها الفنية ، متخطيا المستوى السيكولوجي ، طارقا ابواب مستوى اجتماعي عريض ، كاشفا من خلاله أوضاعا اجتماعيه معقدة بما فيها من خطأ وجرائم ، محاولا تحديد طبيعة العلاقه الغريبة بين الانسان والخطأ وبين الانسان والشر ، شاهرا في وجه هذه العلاقة مسدسه المحشو .

وهكذا ، فقد اكتسبت الجريمة من خلال هذا الفهم الانساني الرحب مفهوما أوسع وأعرض وأعمق – فالجريمة هنا هي جريمة (الوضع الاجتماعي) والخطأ يكمن في نوعية العلاقات الانسانية المرتبكة . وفي هذا الصدد نختلف كلية ونتحد مع كولن ويلسون في حكمه المتسرع الجائر على الروايه في كتابه (المعقول واللامعقول في الادب الحديث) بأنها « رواية بوليسية خفيفة الظل ، ولكنها لا تحتوي على أي تأثير عميق » !

مشهد على القبر :

يجلس المأمور مع رئيسه في عربة سوداء . كل منهما يرتدي معطفا أسود ، مرفوع الياقة ، ويجلس في ركن العربة بلا حراك . وبلا كلام . المطر يتساقط بغزارة . يضرب زجاج العربة . موتور العربة يكسر الصمت في الطريق الى دفن رجل البوليس .

يستغل دورينمات في ذلك المشهد ، كل امكانيات الصورة اللفظية والحسية للغة ، مستعملا لغة أقرب الى اللغة السينمائية في التعبير شبه الكامل بالصورة . بل انه يستعمل اللون كعنصر درامي يشارك في تفسير الحدث وفي تكشف الموقف النفسي للشخصيات ، كذلك في خلق الجو العام للموقف الدرامي – الشيء الذي يذكرنا بانطونيوني وفهمه المتطور لوظيفة اللون كعنصر جديد وهام في مجال الدراما المعاصرة . « جميع رجال البوليس حول التابوت . في ملابس مدنية . الجميع يرتدون المعاطف الواقية من المطر . والاحذية الطويلة والقبعات السوداء . المظلات في أيديهم كالسيوف ، كأنهم حراس موت خياليون ، خرجوا فجأة من مكان ما – طيبون لاقصى حد . وخلفهم موسيقى البلدة ، حيث يرتدي العازفون جميعا حللا مخططة بالاسود والاحمر ، ويقبضون على الات نحاسية صفراء تحت معاطفهم » . الكل نسخة واحدة . نسخة كربونية مكررة . الكل أسود ، بارد ومبتل . الشيء الدافيء الوحيد وسط هذا المطر اللانهائي ، هو التابوت ، الموت . وفي هذه اللحظة المأساوية ، يأتي شابان عملاقان ، سكرانان ، ثم يضعان طوقا من الزهور أرسله الرأسمالي ، على تابوت الانسان الميت ، ويغنيان في ابتذال أن : « كل شيء يمر – كل شيء ينتهي » . حيث يواجهنا دورينمات بعبثية الحياة وعمقها وبنهايتها اللامنطقية ، وحيث يخلط في هذا الموقف المأساوي بين المطر والطين والسواد والموت والقهقهات الثملة . ويهرول الجميع داخل سياراتهم السوداء الضخمة . ويبقى

منشورات « دار الاداب »

تطلب في القاهرة

من

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب

(سليمان باشا سابقا)

حفار القبور وحده مع الجثة .

ومما يلفت النظر ، ان دورينمات قد قدم لنا شخصياته المتعددة بسلوكها المختلف وفهمها الخاص للعالم وعلاقاته المتشابكة داخل اطار الشكل التقليدي للرواية البوليسية ، ولم يجد هناك ضرورة لطرق باب أسلوب الرواية الجديدة ـ الشيء الذي يؤكد ان التجديد لا يعني ان يكون شكليا بالضرورة ، فالعلاقة الجدلية بين جزيئات العمل الفني تنشأ أساسا من مدى فهم الفنان ووعيه لواقع العصر وواقع الانسان ، ومدى استيعابه وتمثله لهذا الواقع ، ومدى تملكه لادواته الفنية وسيطرته عليها ـ هذه العلاقة تنشأ بشكل تلقائي عفوي من خلال موقف الفنان نفسه ورؤيته ، المعاصرة أو غير المعاصرة ، التقدمية او المتخلفة، فالرؤية ـ بمفهومها الواسع ـ هي التي تحدد كل شيء ، والفنان اولا واخيرا هو وحده الذي يملك الحسم . وليست هناك قواعد ثابتة .

فقد حافظ دورينمات على الشكل التقليدي للرواية البوليسية ، فجذب اهتمامنا في السطور الاولى بحادثة القتل ، وتتبع الجريمة بالتدريج ، متعرضا لتفاصيل اجتماعية هي جوهر المشكلة في الاصل ، مرتفعا بها لمستوى ميتافيزيقي غني . ثم يفاجئنا في اخر الرواية بأن الذي قتل « شميد » ليس بالرأسمالي ، لكنه رجل البوليس « تشانس » المكلف رسميا بالبحث عن القاتل . ذلك الشاب الطموح ، الذي كان يكره شميد لتفوقه عليه ، والذي أباح لنفسه كل شيء ، حيث قتل زميله بدافع شخصي بحت ، واستولى على عربته ووظيفته وفتاته .

ونعرف ان بيرلاخ كان على علم بأن تشانس هو القاتل منذ الربع الاول من الرواية ، حيث اكتشف ان الرصاصة التي قتل بها الكلب من نفس المسدس الذي قتل به رجل البوليس .

وينجح المأمور في أن يؤزم تشانس نفسيا ، المرة بعد المرة ، الشيء الذي اضطر تشانس لمحاولة التخلص منه ـ ثم دفعه الى قتل الرأسمالي والتخلص منه نهائيا . وهنا يواجه بيرلاخ زميله تشانس بمعرفته لتفاصيل الجريمة منذ البدء ، ويعريه تماما وبلا رحمة، ويخبره انه استعمل الشر الخاص كسلاح لقتل الشر العام ، والوحشية ضد الوحشية . ويأمره بالذهاب بعيدا ، بعيدا جدا ، حيث نجده في اليوم التالي منتحرا .

ولكن ما هي الضرورة الفنية أو الفكرية لمثل هذه المفاجأة التي تتناقض مع كل تفاصيل الرواية السابقة ؟

هل يريد دورينمات ان يؤكد عبثية العلاقات الاجتماعية القائمة في اوروبا الغربية ومدى لا منطقيتها ؟ هل يريد ان يؤكد مدى تماسك ذلك الاطار الاجتماعي اللاانساني ـ المتمثل في شخص الرأسمالي ـ ومدى صلابته وقدرته على الاستمرار في تولي السلطة والتحكم فيها ؟ وان الخطر الحقيقي ما زال موجودا بيننا ؟

أغلب الظن ان دورينمات ـ كأغلب مفكري الغرب المعاصرين ـ يرى استحكام النظام الرأسمالي القائم واستغلاقه ، يرى عبثيته ولامنطقه وعفنه ، بل انه يفضحه ويرفضه رفضا مطلقا . لكن ، ما هو البديل الذي يقدمه لنا دورينمات بعد رفض ذلك الواقع وتقويض اسس ذلك النظام ؟ ان أمكن ذلك ؟

لا بديل ، فالطريق مغلق ومسدود ، ونهايته مفتوحة على هوة واسعة عميقة وغريقة .

البديل النظري الوحيد لتغيير أسس هذه العلاقات الى شكل اكثر انسانية هو : الحل الاشتراكي . الشيء الذي يكون بمثابة رؤيا خيالية غير ممكنة التحقيق ـ في الوقت الحاضر على الاقل ـ ، والشيء الذي يعني رفض حضارة عريضة وتاريخ طويل يعتز به مثقفو الغرب ويرتبطون به بشكل عاطفي .

وهكذا يتخبط المثقف هناك في دوامة الواقع العبث ـ المرفوض ، ورغم وعيه لطبيعة هذه الدوامة ، فإنه لا يملك القدرة على تغييرها .

القاهرة — يسري خميس

العربية الفصحى

نحو بناء لغوي جديد

تأليف الأب هنري فليش اليسوعي

تعريب وتحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين

منشورات : المطبعة الكاثوليكية - بيروت

توزيع : المكتبة الشرقية - ساحة النجمة - بيروت